٣٠١٠٢٠٠٠٠٣٠٥٦

٠٠٠٧٦٢ ر

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الاسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

اتجاهات الكتابة في السيرة النبوية خلال القرن السابع الهجري
عرض ونقد

رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة

إعداد الطالب
صالح بن أحمد بن جاسر الضويحي

إشراف كل من:
د. جميل بن عبدالله المصري و د. علي بن نفيع العلياني

الجزء الأول

للعام ١٤١٦ - ١٤١٧هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

تعنى هذه الرسالة بدراسة الاتجاهات في كتابة السيرة النبوية في القرن السابع الهجري وقد مهدت لهذا الموضوع بالحديث عن حال العالم الإسلامي خلال هذا القرن وما واجهه من تحديات، كان لها الأثر على الحياة الفكرية التي تم العرض عنها بموضوع مستقل.

وقد عنى الفصل الأول بأثر العقيدة على كتابة السيرة وأوضحت فيه أثر عقيدة الشيعة ودورها في صياغة أحداث السيرة وفق معتقدها فتخرج من عندهم بلباس خاص، ييسر لهم استخدام أحداث السيرة في تحقيق أهدافهم والتي منها أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة بعد النبي صلى الله عليه وسلم. والطعن في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما.

كما بينت أثر عقيدة الصوفية الغلاة والمتمثلة بالتركيز على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم وافتراء أحداث توافق مسلكهم، وأما عقيدة الفلاسفة وأهل الكلام فقد وضح منهجهم من خلال الطريقة التي كتب بها ابن النفيس السيرة النبوية.

وقد قام أهل السنة بمنهجهم الواضح يدافعون عن السيرة النبوية وعرضت لما وقع فيه بعضهم من خطأ كان للبيئة أثر فيه.

وفي الفصل الثاني حصرت المصادر التي يعتمد عليها أصحاب كل اتجاه، ورأيت أنهم يتفقون في المصادر العامة وهي القرآن الكريم والسنة النبوية وكتب المغازي والسير، ولكنهم يختلفون في الأخذ منها وفق تصوراتهم، ويزيد الصوفية بالرواية عن مشايخهم والشيعة ينقلون مرويات وأقوال أئمتهم، ثم أوضحت طريقة استخدام المصادر.

وفي الفصل الثالث بينت الطرق التي كتبت من خلالها السيرة النبوية فجاء ذلك من خلال تفسير القرآن الكريم وشرح أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وماجاء على هيئة نظم أو اختصار، كماجاء في عرض لبعض جوانب السيرة النبوية، ومن خلال الإطار العام للتاريخ الإسلامي وضمن توظيف أصحاب العقائد أحداث السيرة في مصنفاتهم.

وأما الفصل الرابع فعرضت نماذج للبدع والخرافات التي جاءت في الكتب المتعلقة بأحداث السيرة النبوية، وذلك من خلال عرضهم لأحداث السيرة النبوية وافتراء أقوال للنبي صلى الله عليه وسلم تحقق هدفهم.

وأما الفصل الخامس فكان عن أثر اتجاهات كتابة السيرة في القرن السابع الهجري على اتجاهات كتابة السيرة في القرن الثامن الهجري، واقتصرت الحديث فيه عن أثر الاتجاه السني من خلال ما كتبه الذهبي وابن سيد الناس كما أوضحت واقع الاتجاه الصوفي والشيعي في القرن الثامن وأثر أهل القرن السابع عليهم. وخلصت إلى نتائج من أهمها ملاحظة توجه أصحاب العقائد المنحرفة إلى أحداث السيرة وتوظيفها في خدمتهم، والحاجة المستمرة من أهل السنة للدفاع عنها، وأن الأمة الإسلامية مهما تكالب عليها الأعداء من كل جهة فلديها القدرة والسلاح لصد عدوها، بالإضافة إلى وجود تراث ضخم في السيرة النبوية يحتاج إلى الدراسة والتمحيص.

والله الموفق

الطالب/ صالح بن أحمد الصويحي

المشرفان

د. جميل عبد الله المصري

عميد الكلية

ثم اتبع هذا بالتحليل ، والدراسة والتمحيص للمرويات ، فجاءت كتابتها بطرق مختلفة وأنواع شتى .

ولمكانتها عند المسلمين ، وأثرها الفاعل في حياتهم كثرت المصنفات فيها في القرن السابع الهجري على وجه الخصوص . وفي القرون الأخرى بوجه عام .

ولقد كان لواقع المسلمين في ذلك الوقت أثر في التوجه إلى السيرة ، حيث أن تعدد أنواع التحديات التي واجهت الأمة في هذا القرن ، دفعت قادة الفكر في الأمة للتوجه إلى التخفيف من معاناتها ، وعرض طريق الخلاص أمامها ، بعرض سيرة المصطفى ﷺ بصور شتى .

وهذه العناية بالسيرة في هذا القرن عمقت من تأصيل الفرق في نظرتها لسيرة المصطفى ﷺ ، فجاءت كتاباتهم للسيرة تعبر عن معتقداتهم وتصوراتهم الخاصة لأحداث السيرة مما جعل مصنفاتهم تأخذ مناهج مختلفة ، فمنها ما اتخذ طريقة الرد على أصحاب الاتجاهات التي اتخذت السيرة وسيلة لتحقيق أهدافها ، ومنها ما اتخذ طريق الكتابة الخاصة بمواضيع السيرة منهجاً له فسار عليه ومنها ما استجاب لتلك التأثيرات الفكرية فجاءت كتابته متنوعة الاتجاهات .

ولهذا الواقع الذي ظهرت به كتابة السيرة في هذا القرن أثر دفعني لاختيار هذا الموضوع والكتابة فيه ، ومن أجل الآتي :

- أن سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) باب واسع تلج فيه الفرق المختلفة لتستخدمه في عرض مادتها للناس ، فلابد من تجلية النص من شبهاتها التي تثيرها حول بعض أحداث السيرة .
- دراسة تأثير تلك الفرق على مصنفي أهل السنة في صياغتهم لأحداث السيرة .
- معرفة الآثار التي خلفها واقع المسلمين في هذا القرن على كتابة السيرة .

وأما الدراسات السابقة لهذا الموضوع ، فالذي ظهر لي أنه لم يسبق أن تمت الكتابة من قبل في هذا الموضوع لا من حيث فكرته ، ولا من حيث زمن دراسته ، بل الموجود تناول عام لبعض تصورات الفرق المختلفة من الشيعة ، والصوفية عن بعض أحداث السيرة النبوية ، وذلك بغرض الحديث عن الفرق ذاتها ، أو الحديث عن كتب تناولت مواقف تلك الفرق عن أحداث تعنى بالسيرة .

من ذلك ما كتبه إحسان إلهي ظهير عن الشيعة والصوفية ، أو ما جمعه وعلق عليه الشيخ / محمد مال الله من كتب شيخ الإسلام في سلسلة سماها شبهات حول الصحابة والرد عليها .

وما كتبه محمد عبدالرحمن بن قاسم عن آل الرسول وأوليائه ، وذلك من كتاب منهاج السنة لابن تيمية .

كما أن تحقيق مرويات أحداث السيرة والذي تبنته الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة يتناول تحقيق الروايات التي جاءت بأحداث السيرة .

مصادر البحث :

يعنى الموضوع بالاتجاهات التي ظهرت بها مصنفات السيرة في القرن السابع ، ولهذا ستكون مصادره كتب أصحاب تلك الاتجاهات .

فكانت المصادر موضوع الدراسة لأهل السنة قد تناولت أحداث السيرة تناولاً مباشراً سواء ما اقتصر منها على موضوعات السيرة على وجه خاص وهو الأكثر ، أو جاءت السيرة معه ضمن موضوعات ، أو ما اتخذ أحداث السيرة للرد بها على شبه المضلين .

وهذه المصادر منها ما هو مخطوط ، ومنها ما هو مطبوع فمن المخطوط كتاب نهاية السول في خصائص الرسول لابن دحية الكلبي ت ٦٣٣هـ . والذي عرض فيه خصائص الرسول ﷺ ومعجزاته ، وفضائله ، وكتاب مختصر السيرة النبوية لعبدالمؤمن بن خلف الدمياطي ت ٧٠٥هـ ، وقد عرض فيه كافة أحداث السيرة وركز على الجانب الخاص في حياة النبي ﷺ ، وعرض فيه للغزوات النبوية .

وكتاب عجالة الراغب في ذكر أشرف المناقب لمحمد بن علي بن عبدالواحد الزملكاني ت ٧٢٠هـ ، وقد خصصه لبعض خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعجزاته ، وقارن بينها وبين معجزات غيره من الأنبياء .

وأما الكتب المطبوعة فمنها كتاب الكامل لابن الأثير ت ٦٣٢هـ ، وقد ضمنه سيرة النبي ﷺ كاملة حيث انتقى رواياتها من الطبري وابن إسحاق .

ومنها الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء ، لسليمان بن موسى الكلاعي ت ٦٣٤هـ ، ولم يقتصر فيه على المغازي بل ذكر فيه كافة موضوعات

السيرة النبوية ، معتمداً فيه على ابن إسحاق على وجه الخصوص ، ويستعين في بعض المواضيع بمصادر أخرى من السيرة .

ومن المصادر أيضاً كتاب التاريخ الإسلامي (المظفري) لإبراهيم بن أبي الدم الحموي ت ٦٤٢هـ ، وجاءت موضوعات كتابه تحوي موضوعات السيرة المعروفة من ولادة النبي ﷺ ثم مبعثه وغزواته وختمه بأحوال النبي ﷺ الخاصة ، ولكنه اتبع طريق الاختصار في عرضه هذا بالإضافة إلى كتب المحب الطبري ، وكتب الإمام ابن تيمية وغيرها .

وأما مصادر الاتجاه الشيعي في هذا القرن فقد تناولت أحداث السيرة تناولاً مباشراً ، وفق منهج خاص يعرضون به أحداث السيرة لتحقيق هدفهم فيها ، والذي به تتغير عندهم عناوين موضوعات السيرة لتتفق ومرادهم في تلك الأحداث ، ومن أهم هذه المصادر (كشف المحجة لثمرة المهجة) لمؤلفه علي بن سعد ابن موسى بن جعفر والمتوفى سنة ٦٤٤هـ ، وقد وظف عناوين لأحداث السيرة تخدم معتقداته ، وأن لم يشمل كافة موضوعات السيرة .

ومن مصادرهم كتابه اليقين في إمرة أمير المؤمنين ، وقد حشد فيه روايات لأحداث في السيرة النبوية ليثبت من خلالها أحقية علي رضي الله عنه بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومن المصادر(كشف الغمة في معرفة الأئمة) ، لعلي بن عيسى الأربيلي توفي سنة ٦٩٣هـ ، وقد اشتمل كتابه على مولد الرسول ﷺ وأسمائه ومعجزاته ، وعرض فيه لبعض الغزوات النبوية وجعلها تحت عنوان شجاعة علي عليه السلام ، ثم عرض لسيرته رضي الله عنه .

وأما مصادر الاتجاه الصوفي فكان منها ما يتناول أحداث السيرة تناولاً مباشراً ولكنه يقتصر على بعض موضوعات السيرة أو يختصرها .

وكتاب اختصار سيرة الرسول ﷺ لابن عربي ت ٦٣٨هـ ، والذي جاءت مادته مختصرة سواء ما بدأ الحديث به وهو سيرة النبي ﷺ الخاصة ، أو ما ختم به كتابه وهو (الغزوات النبوية) ، والتي كان الحديث عنها لا يتجاوز الذكر لها فقط .

وهناك مصادر للصوفية لم تختص بالسيرة ، ولكن أحداثها جاءت ضمن موضوعات تلك المصادر ، ومنها كتاب (عوارف المعارف) ، لعبدالقاهر

السهروردي ت ٦٣٢هـ ، ومن ذلك مخطوط (الروضة الناظرة في أخلاق المصطفى الباهرة) ، وهو ليحيى بن يوسف الصرصري ت ٦٥٦هـ ، والذي عرض لموضوعات السيرة في العهد المكي ومعجزات النبي ﷺ على هيئة نظم .وكتاب (لطائف المنن لابن عطاء السكندري ت ٧٠٩هـ .

وأما المصادر الخاصة للفلاسفة وأهل الكلام في هذه القرن فهي ما كتبه (ابن النفيس) علي بن أبي الحزم القرشي ، ت ٦٨٧هـ وسماه (الرسالة الكاملية في السيرة النبوية) ، وقد ساق فيه بعض أحداث السيرة وفق منهج قصصي استنباطي .

والكتاب الآخر مخطوط وهو بعنوان (الروضات البهية الوسيمة في الغزوات النبوية الكريمة) لأبي محمد حسن بن علي القطان كان حياً في منتصف القرن السابع وجاء كتابه سرد للغزوات النبوية مثل ما جاءت عند ابن إسحاق وغيره من كتاب السيرة ، وذكر في بعض الأحيان للخلافات بينهم .

وهناك مصادر أخرى استعنت بها في إعداد مادة هذا البحث ، وهي عدد من تفاسير القرآن الكريم كتفسير القرطبي والبغوي وابن كثير وكتب الحديث الصحاح والسنن ، والمصادر الأولى للسيرة النبوية وغير ذلك مما دعت الحاجة إليه وسيرد ذكره فيما بعد ومما لم يرد ذكره من مراجع أوحت إلي بفكرة أو دلتني على مادة في مصدر .

وقد اشتملت خطة هذا البحث على تمهيد وخمسة فصول :

وقد اقتصرت في التمهيد على عرض لأحوال العالم الإسلامي في القرن السابع بصورة موجزة وبدأت ذلك بالحديث عن التحدي الخارجي الذي واجه العالم الإسلامي في هذا القرن وأثره على مسار حياته ، كما أوضحت الواقع السياسي الداخلي وأشرت إلى فئات السكان وعناصرهم والتي كانت تقيم في البلاد الإسلامية وختمت هذا المبحث بعرض للحياة الفكرية السائدة آنذاك والتي أظهرت ازدهار الحياة العلمية في ظل تلك الظروف الصعبة .

الفصل الأول : والذي بعنوان أثر العقيدة على كتابة السيرة ، وتم في ثلاثة مباحث

فالمبحث الأول : أثر عقيدة الشيعة ومهدت بأصل هذه الفرقة ، ثم عرضت لعدد من الأسس التي دار حديثهم حولها في تناولهم لأحداث السيرة ، وهي الكذب على

الصحابة ، وتوظيف أحداث السيرة لإثبات إمامة علي رضي الله عنه بعد رسول الله ﷺ . والطعن في أبي بكر وخلافته ، والرد على مخالفيهم من خلال وقائع السيرة النبوية وإضافتهم على أحداث السيرة مما لم تنقله المصادر المعتبرة .

وفي المبحث الثاني : كان الحديث عن أثر عقيدة الصوفية على كتابة السيرة ، وقد بدأته بتمهيد عن جذور هذه الفرقة ، ثم عرضت فيه لمعالم تناولهم للسيرة النبوية ، والذي يتمثل بالتركيز على شخص الرسول ﷺ والاهتمام بقضايا جزئية من سيرته والغلو فيها ، وربط سلوكهم العبادي بأحداث السيرة بعد تأويلها ، وافتراء أحداث لم تقع في السيرة وذلك لنشر مناهجهم من خلالها .

وفي المبحث الثالث : عرضت فيه لأثر عقيدة الفلاسفة وأهل الكلام ، وبدأت ذلك بالتعريف بأصل هذه النحلة ، واستعرضت كتاب (الرسالة الكاملية) لابن النفيس ، والذي انفرد بعرضه للسيرة .

المبحث الرابع : وتحدثت فيه عن أثر عقيدة أهل السنة على كتابة السيرة وبينت فيه أصولهم التي بنو عليها كتاباتهم وتناولهم للسيرة النبوية في هذا القرن من خلال اعتمادهم على القرآن الكريم وتوظيفهم السيرة للرد على أعداء الإسلام ، وبيان مكانة الرسول ﷺ كما ختمته بعرض لما وقع فيه بعضهم من مشابهة لغيرهم في مجانبة الصواب .

وفي الفصل الثاني : كان الحديث عن المصادر التي اعتمدت عليها في بيان تناول الاتجاهات للسيرة النبوية في هذا القرن ، وتبين لي أن الاستفادة من المصادر تتفاوت من فئة دون الأخرى ، فاعتماد القرآن الكريم عند أهل السنة يختلف عن اعتماد الشيعة والصوفية ، حيث أن لكل فئة نظرة خاصة للقرآن الكريم تتميز عن غيرها ، وكذا الأمر بالنسبة للسنة النبوية ، فأهل السنة يعتمدون أحاديث الرسول ﷺ كما نقلتها كتب الصحاح والسنن ، لكن الشيعة يستدلون بالضعيف والموضوع ويحرفون معانيها ، وفق أهدافهم ، وكذا الأمر بالنسبة للصوفية لكنهم يزيدون بالتواصل مع النبي ﷺ بعد وفاته ، ويزيد الشيعة من مصادرهم بنسبة مرويات وأقوال لأئمتهم ، والصوفية يروون لمشايخهم .

وفي الفصل الثالث : والذي عني بطرق كتابة السيرة النبوية ، حيث ظهرت الكتابة في هذا القرن بطرق متعددة وهي النظم لأحداث السيرة النبوية ، والاختصار كما جاءت ضمن الإطار العام لكتابة التاريخ الإسلامي وضمن الكتابة عن زوجات الرسول ﷺ وصحابته وقرابته ، وفي سياق التأكيد على ولاية علي رضي الله عنه عند الشيعة ، وللرد على أصحاب الشبه من المسلمين وغيرهم كما جاءت وفق المنهج القصصي وضمن الحديث عن تاريخ المدينة المنورة ، ولم يقتصر الحديث على التعريف بهذه الطرق وأصحابها بل شمل تسمية المؤلفات وانتقاء الروايات وتحليل النصوص .

وفي الفصل الرابع : والذي كان الحديث فيه عن البدع والخرافات التي وردت في كتب السيرة في هذا القرن تم تقسيمه إلى عدة مباحث وبدأته :

بالمبحث الأول : عن تفسير آيات من القرآن ببدع وخرافات تمس أحداث السيرة النبوية .

وفي المبحث الثاني : عرضت نماذج من البدع والخرافات التي أضيفت على أحداث السيرة .

والمبحث الثالث : ذكرت الأقوال التي نسبت إلى النبي ﷺ .

وفي المبحث الأخير : عرضت لمظاهر الغلو بالنبي ﷺ وما صحب ذلك من بدع وخرافات حول سيرته .

وفي الفصل الخامس :

تناولت أثر كتابة السيرة في القرن السابع على كتابة السيرة في القرن الثامن ، وفيه ثلاثة مباحث :

ففي المبحث الأول : تحدثت عن الذهبي ، وكتابه السيرة النبوية ، وأثر شيوخه من القرن السابع عليه .

وفي المبحث الثاني : عرضت لابن سيد الناس ، وكتابه في السيرة النبوية وأثر شيوخه من القرن السابع عليه في تلك الكتابة .

وفي المبحث الثالث : كان الحديث عن الغلو بالنبي ﷺ في القرن الثامن وأثر أهل القرن السابع عليهم في هذا الجانب .

وضمنت هذا الفصل الحديث عن واقع الاتجاه الشيعي والصوفي في القرن الثامن الهجري حيال نظرتهم للسيرة النبوية وأثر شيعة وصوفية القرن السابع عليهم .

وفي الختام لا يسعني إلى أن أقدم شكري وتقديري لجامعة أم القرى ممثلة بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية وقسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية ، التي احتضنتني مدة هذه الدراسة ، وأتاحت لي فرصة البحث العلمي في هذه الرسالة ، كما أقدم شكري لشيخي الفاضلين كل من فضيلة الدكتور : جميل بن عبدالله المصري ، وفضيلة الدكتور : علي بن نفيع العلياني ، فقد غمراني بكريم فضلهما ، وشملاني بعطفهما ، ورعايتهما وتوجيههما ، وأنارا لي طريق العلم والمعرفة واكتسبت منهما سلوكيات طالب العلم ، وآدابه ، فلهما مني الدعاء الخالص بعظيم الأجر والمثوبة وحسن الخاتمة ، كما أشكر كل من أسدى إلي رأيا أو سهل لي طريقا أعانني على كتابة هذه الرسالة .

والله أسأل أن يسددنا في القول والعمل إنه سميع مجيب .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين .

التمهيد

تمهيد :

العالم الإسلامي خلال القرن السابع الهجري

التحديات الخارجية :

التحدي المغولي

التحدي الصليبي

للشام ومصر

للأندلس

للمغرب

الأحوال الداخلية :

في الأندلس

في المغرب

في الحجاز واليمن

في مصر والشام

في المشرق الإسلامي

عناصر السكان وفئاته :

في العراق

في مصر والشام

في المشرق الإسلامي

في المغرب والأندلس

في اليمن .

في الحجاز

الحياة الفكرية :

التعليم

التصنيف

واجه العالم الإسلامي في هذا القرن تحدياً كبيراً ، عرّض أرضه وأهله للخطر وكادت تلك القوى المضادة أن تقضي عليه .

فقد تكالبت عليه قوى الكفر والإنحراف من جميع الجهات معلنة أن لا بقاء للإسلام

ولكن عون الله وإيمان المسلمين بنصر الله لهم ، يسر لهم دحر تلك القوى وردها على أعقابها فلم تنل شيئاً من المسلمين .

وكان هذا العدوان على المسلمين بمثابة وقود داخلي للأمة أنهض همتها وقادها إلى الشعور بذاتها وإدراك حقيقتها .

والآن نعرض لهذا التحدي في كافة مواقعه ومواقف المسلمين منه .

٢٠٥٦

التحدي المغولي التتري :

من أكبر التحديات التي واجهتها الأمة الإسلامية في المشرق الهجوم المغولي ، والذي اكتسح العالم الإسلامي في هذا القرن .

ولم يحمل أي معنى للقيم الحضارية ، لأن القائم به شعب بدائي ، ولذا فلم يُقِمْ أي وزن لمظاهر الحضارة التي كانت تعيشها بلاد المسلمين والتي دخلتها قوات المغول وتلقت ضرباتهم الأولى الدولة الخوارزمية منذ سنة (٦١٧هـ) فأبادوا مظاهر الحياة في البلاد التي دخلوها في تركستان وفارس (١) .

ثم وصلت طلائعهم إلى أقاليم أذربيجان وديار بكر والجزيرة سنة (٦١٨هـ)(٢) .

ولم تقف جيوشهم عند هذا الحد بل كان هدفها الوصول إلى حاضرة الخلافة الإسلامية مدينة بغداد حيث كان ذلك هدفاً لبعض حاشية الخليفة العباسي من الباطنية، والذين يسرهم القضاء على رمز الخلافة السنية ، كما قدمت الإسماعيلية التسهيلات للتتار فتمكنت قوة التتار بذلك من الوصول إلى بغداد سنة (٦٥٦هـ) ومحاصرتهم ، ثم دخولها بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان .

وقبض التتار على الخليفة العباسي المستعصم بالله وعلى أقاربه ثم قضى عليهم ، وأمام مظاهر الحضارة في بغداد لم يستطع هؤلاء الناس التعامل بها سوى ما يعرفونه من أساليب القتل والتدمير لكل نبض حياة ، وكان لدخولهم بغداد أثره البالغ على الأمة ، حيث قضى على مقومات حضارتها بقتل علمائها وإحراق كتبها ووسائل علمها ومعرفتها(٣) .

وكان لهذا الفعل أثره في توقف جهود الأمة في بناء نهضتها كما أسهم في تردي وضعها السياسي .

---

(١) ابن الأثير : على بن أبي الكرم : الكامل في التاريخ جـ١٠ص ٤٠١ ، دار الكتب العلمية – د/ جميل المصري – حاضر العالم الإسلامي ص ٥٨ دار أم القرى عمان ١٤٠٩هـ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج١ ص ٤٢٤ .

(٣) بيبرس المنصوري : التحفة الملوكية في الدولة التركية ص ٤٣ . نشر الدار المصرية اللبنانية القاهرة ١٤٠٧هـ ابن الوردي : زين الدين بن عمر : تتمة المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص ٢٩٧ – دار المعرفة بيروت د، ت ، وابن كثير : إسماعيل بن عمر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٠ – مكتبة المعارف – بيروت ١٩٧٧م .

ولم يكن هدف هولاكو تحطيم العاصمة بغداد فقط بل هدف إلى القضاء على الوجود الإسلامي في المنطقة كاملاً والهيمنة عليه ، ولهذا واصل زحفه على بلاد الشام ، فدخلت قواته حلب ، ثم دمشق ، وقبل أن يبسطوا نفوذهم على غالب البلاد الشامية قرروا الزحف إلى مصر لكونها مركز الثقل السياسي آنذاك وكان ذلك سنة ٦٥٨هـ (١) .

وكانت مصر تشهد ظروفاً وتغيرات في تلك الفترة ، من سقوط الدولة الأيوبية وقيام دولة المماليك ، مما يعني وجود نظام سياسي جديد ، سيحمل مهمة الدفاع عن البلاد الإسلامية ، ليثبت للناس قدراته على مواجهة التحديات وحمايتهم من تلك الاعتداءات التي مرت بها بلاد الشام والعراق .

ولهذا لما استنجد الحاكم المملوكي المظفر قطز(٢)بالناس في مصر ودعاهم إلى الخروج لمقاومة هذا العدو ، قبل أن يصل بلادهم ويفسدها ، استجابوا لهذا الطلب ، واستطاع (قطز) أن يقف بهم في وجه التقدم المغولي إلى مصر ، ثم يلاحقهم في (عين جالوت) (٣) سنة (٦٥٨هـ) ويوقع بهم هزيمة نكراء جعلتهم يرتدون على أدبارهم(٤) .

وهذا الانتصار أكسب المماليك ثباتاً على الساحة السياسية ، وأمكنهم على وراثة الملك الأيوبي ، كما أن هذا التحدي الكبير الذي واجهوه في البداية جعلهم يدركون خطورة هذا العدو ويحسبون الحساب المناسب له .

وقد كان لهذا الانتصار أثر على عموم المسلمين ، حيث رفع من معنوياتهم ، وحط من مكانة المغول في نفوسهم ، وأبان لهم أن الأمة لا تستطيع الدفاع عن نفسها

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢١٨-٢١٩ .

(٢) هو سيف الدين قطز المصري بطلاً شجاعاً قهر التتار قتله الظاهر بيبرس سنة (٦٥٨هـ) ، الذهبي : العبر جـ ٣ ص ٢٩١ ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٥هـ .

(٣) عين جالوت : بلدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين (ياقوت الحموي معجم البلدان جـ٤ ص ٧٧ ، دار إحياء التراث العربي : بيروت ١٣٩٩هـ) .

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص ٢٩٧ . ابن كثير البداية والنهاية ص ١٣ ، ص ٢٢٠ .

وقد بقيت قوة التتار في بلاد الشام وما جاورها تهدد المدن الشامية بين وقت وآخر فهاجموا حلب سنة ٦٥٩هـ ، ولكنهم ردوا على أعقابهم(١) . وبقيت قوات التتار وبمساعدة من الصليبيين تقوم بالغارات على بلاد الشام وتهدد استقرارها وأمنها ، في حين حمل المماليك راية الجهاد ، وساعدهم العلماء في إثارة الأمة والوقوف في وجه التحدي فكان الصمود والثبات ، كما كان العمل على إعادة الخلافة العباسية على يد الظاهر بيبرس في القاهرة من المظاهر التي مكنت للمماليك في مصر والشام والحرمين مصارعة التحديات ، فحطمت الجهود التي قام بها التتار من سعي إلى مهاجمة الأقاليم الإسلامية دون انقطاع مستغلين أي ظرف يمر بتلك الأقاليم .

فقد هاجموا الموصل سنة ٦٦٠هـ ولكنهم منوا بخسارة كبرى(٢) . ثم أعدوا حملة كبرى سنة ٦٦٨هـ ، ولكن جيوش المماليك في الشام ومصر قاتلتهم في حمص فهزمتهم(٣) .

ولهذا كانت الجبهات الإسلامية التي يتعرض لها التتار أشبه ما تكون بحرب استنزاف للمسلمين ، بسبب ما يقدم عليه التتار من الإغارة على البلاد الإسلامية ، ونهب خيراتها ، وإفساد مصالحها ، وقتل رجالها ، وسبي نسائها ، وكان لضعف السلطة المركزية للمماليك في بعض الأحيان والتنافس عليها من قبل أمرائهم دور في إضعاف المسلمين أمام التتار مما يطمعهم بالإغارة المستمرة على المسلمين .

ولهذا كان للعلماء دور في شد أزر الولاة حين اعتدى التتار عليهم ، ومن ذلك ما قام به الإمام ابن تيمية رحمه الله سنة ٦٩٧هـ حين دعا الناس إلى مقاومة العدو ، فاستجابوا لذلك ، وصد عدوانه(٤) .

ولما قدم التتار في سنة٦٩٩هـ بلاد الشام قابلهم المسلمون وهزموهم(٥) . وكان

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر في أخبار البشر جـ٢ ص٣٠٢ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ص٢٣٤ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ص٢٩٥ .

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ص٣٤٦ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٣ص٣٥٢ .

(٥) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ٢ص٣٥٣ . ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٤ص ٧،٨ .

دور العلماء فاعلاً في مثل هذا الظرف ، فقد دعا الإمام ابن تيمية وعدد من العلماء الناس في بلاد الشام إلى مقاومة العدو فاستعدوا واستطاعوا رده عن بلادهم(١) .

ونتيجة لحال الضعف التي مني بها المسلمون في بلاد الشام أمام حكم بعض الأمراء المماليك ، أصبح الناس بحالة من الفزع والذعر ، فكانوا يدعون بلادهم فارين إلى بلاد أخرى خشية على أنفسهم وذلك حين العلم بأي تحرك من التتار عليهم حتى ولو لم يصلوا إليهم كما حدث عام ٧٠٠هـ لما وصل الخبر بمقدم التتر إلى الشام فهاجر الناس إلى الكرك ومصر وغيرها (٢) ، لكن استعداد الأمة بقيادة علمائها قوى من عزائمها ، واستطاعت أن تحد من تقدم العدو على بلادها .

التحدي الصليبي للشام ومصر :

وأما التحدي الخارجي الآخر الذي عانى منه المسلمون في بلاد الشام ومصر فهو التحدي الصليبي الأوربي ، والذي سبق أن قدم قبل القرن السابع الهجري وأقام له كيانات سياسية متفرقة في الأقاليم الإسلامية ، وكانت هذه الكيانات تقل وتكثر حسب قوة الأمة المسلمة ومقاومتها لها .

وقد أصبح مَنْ في طرابلس منهم يهدد إمارة حمص وما والاها ، فاستنجد حاكمها أسد الدين(٣) شيركوه بالولايات القريبة منها ، فاستجابت له أمارة حلب ، واستطاع أن يوقف هذا التهديد ، وكان ذلك في سنة ٦٠٤هـ(٤) .

ومن صور التحدي الصليبي تهديد من أقام منهم في عكا لما حولها ، فما كان من الأيوبيين إلا أن صالحوهم ، وتوالت الهجمات الصليبية على البلاد الإسلامية ، ففي

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١١ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٣٥٥ . ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٦

(٣) هو أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين تولى حمص سنة ٥٨١هـ وكانت في غاية الأمن والعدل وقد هابه الفرنج والعرب وله منزلة عند بني أيوب توفي سنة ٦٣٧هـ (ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٤ ، الذهبي العبر جـ ٣ ص ٢٣٠) .

(٤) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١ ص ٣٤١ .

سنة ٦١٥هـ أغاروا على مصر واستطاعوا بسط نفوذهم على مدينة دمياط المصرية لكن جيوش بني أيوب استطاعت استرجاعها منهم وردهم على أعقابهم(١) .

ثم إن الصليبيين في سنة ٦٢٥هـ جددوا الاعتداء على الشام ، واستطاعوا الدخول في كل من عكا وصور وصيدا . وفي سنة ٦٢٦هـ ظهر تخاذل المسلمين أمام الصليبيين بشكل فاضح حتى أنهم صالحوهم على تسليم بيت المقدس لهم(٢) .

ومن عوامل عدم القدرة على مقاومة التحدي الخارجي للأمة الخلافات التي كانت تنشب بين حكام بني أيوب ، فتصب قوتهم في تلك الخلافات ويترك العدو يتصرف كيف شاء .

وبوصول المماليك إلى السلطة تغيرت موازين القوى لصالح المسلمين حيث ولي السلطة أمراء أقوياء ، فقاموا بجهد كبير لتوحيد مصر والشام تحت راية واحدة(٣) .

واستطاع الظاهر بيبرس طرد الصليبيين من مدن الساحل الشامي ، توج ذلك بفتح أنطاكية(٤) وكان ذلك سنة ٦٦٦هـ(٥) .

وتلي ذلك الإغارة على عدة حصون وذلك للحد من تطاول الصليبيين على السكان المسلمين المجاورين لهم(٦) .

ولم يقف الظاهر بيبرس عند مهاجمة المدن الداخلية التي أقيم فيها إمارات صليبية بل هاجم الموانئ الشامية التي يسيطر عليها الصليبيون ففي عام ٦٦٩هـ حاصر

---

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٠ ص ٣٧٥-٣٧٨ ، ٤٢٨ . ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ جـ ١٠ ص ٤٨١ . ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٢٣ .

(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٢٦٣ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٧

(٤) أنطاكية : مدينة قديمة بالشام بينها وبين حلب يوم وليلة (وهي الآن تتبع تركيا) ، (ياقوت الحموي معجم البلدان جـ ١ ص ٢٦٦،٢٦٧) .

(٥) ابن الوردي : المصدر السابق جـ ٢ ص ٣١٣ . ابن كثير : المصدر السابق جـ ١٣ ص ٢٥٦ .

(٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٥ .

موانئهم قرب ساحل اللاذقية(١) ففتح حصوناً مهمة واضطر غيرها إلى طلب المصالحة خشية منه(٢) .

ولم يهنأ الظاهر بيبرس بتلك الانتصارات بسبب عدم استقرار جبهة الشام ، حيث أن التتار والصليبيين كانوا ينتهزون الفرصة للإغارة على البلاد المجاورة لهم وتهديدها ، وأصبح الناس يغادرون المدن الشامية كحلب وحمص خوفاً من إغارة التتار عليها في بعض الأوقات مما حدا بالظاهر بيبرس أن يقود المعارك بنفسه في سنوات متعددة ضد الصليبيين والتتار(٣) فأوقع الرعب في نفوسهم بعد هزائمهم المتكررة منه .

ولما ولي السلطان قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ) أدرك أن اشتغاله بالقضايا الداخلية يقوي عدوه بالهجوم عليه واستغلال الظروف لصالحه ، فما كان منه في سنة ٦٨٨هـ ، إلا أن أعد جيشاً هاجم به طرابلس والتي كانت خاضعة للصليبيين فدخلها فاتحاً منتصراً وأخرج منها الصليبيين(٤) . ولما خلف الأشرف خليل بن المنصور قلاوون والده (٦٨٩-٦٩٣هـ) سار على منهاجه في مقارعة الصليبيين ، فقضى على نفوذهم في عكا ، ثم واصل سيره فقضى على كافة الوجود الصليبي في الساحل الشامي باستعادة عكا آخر معاقل الصليبيين سنة ٦٩٠هـ ، وقال ابن كثير في ذلك : (ولم يبق بالسواحل ولله الحمد معقل للفرنج إلا بأيدي المسلمين)(٥) . ثم تلى ذلك فتح قلعة الروم(٦) سنة ٦٩١هـ والتي كانت لها ميزة خاصة في قوتها فدكتها

---

(١) اللاذقية : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال حلب بينهما ستة فراسخ وهي الآن ميناء سوريا الرئيس على البحر المتوسط ، ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٥ ص٥، هزاع الشمري : المعجم الجغرافي لبلاد العالم ص٢٨٦. دار أميه الرياض ١٤١٠هـ .

(٢) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٣١٥ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٦

(٣) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٣١٩ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦

(٤) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٣٣٥ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٣

(٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص٣٢١ .

(٦) قلعة الروم : غربي الفرات مقابل البيرة ، بينها وبين سمسياط ، وبها مقام بطريك الأرمن ، (ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤ ص ٣٩٠) .

أسلحة خليل بن قلاوون ثم أعيد بنائها من جديد(١) .

التحدي الصليبي للأندلس :

مع الظروف الداخلية التي كانت تمر بها بلاد المسلمين في الأندلس والمغرب . واجه المسلمون تحدياً قوياً عرض وجودهم في بلاد الأندلس للخطر ، وذلك أن القوى النصرانية هنالك ، أخذت تجمع عدتها وعتادها لمواجهة المسلمين بعد معركة الأرك(٢) سنة ٥٩١هـ التي هددت مدناً كانت الإمارات النصرانية تفرض وجودها عليها(٣) .

فانطلقت أصوات الوحدة من الإمارات النصرانية بجمع الشمل والوقوف أمام قوة المسلمين في الأندلس ، واستنجدوا بأوربا لهذا الغرض وبارك البابا هذا التجمع الصليبي(٤) . وما أن أهل عام ٦٠٩هـ حتى كانت قوات النصارى على أهبة الاستعداد لحرب المسلمين(٥) .

وأما القوة الإسلامية في الأندلس فكانت في حال لا تحسد عليها من شيوع الفرقة والاختلاف بينها .

ولهذا لما تمت المواجهة بين الطرفين في مكان يسمى بالعقاب(٦) سنة ٦٠٩هـ مني المسلمون بهزيمة كبيرة كانت بداية النهاية للوجود الإسلامي في الأندلس

---

(١) ابن الوردي : تتمة المختصر جـ ٢ ص ٣٣٨ . ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٧

(٢) الأرك : قلعة حربية تقع على نهر وادي يانه وقعت فيها معركة انتصر الموحدون فيها على نصارى الأندلس ؛ (السلاوي : أحمد بن ناصر : الاستقصاء في أخبار المغرب الأقصى جـ ٢ ص١٦٩ . القاهرة ١٣١٢هـ) .

(٣) الحميري : محمد بن عبدالمنعم : الروض المعطار ص ١٣ . تحقيق إحسان عباس - مكتبة لبنان - بيروت ١٩٨٤م .

(٤) الحميري : الروض المعطار ص ١٣٧ .

(٥) الحميري : الروض المعطار ص ١٣٧ . السلاوي : الاستقصاء جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٦) العقاب : سهل مليء بالتلال الصخرية القليلة الارتفاع (عصام الفقي : تاريخ المغرب الأندلسي ص ٢٧٥ ، مكتبة نهضة الشرق ، جامعة القاهرة د ، ت) .